مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

أ. السّائح عَليّ حُسَين

مقدمة عامة:

لكل الأديان سواء كانت سماوية من عند الله أم وضعية من ابتكار البشر، وجميع الأيديولوجيات السياسية والعقائدية ذات الاتجاهات والمشارب المختلفة أهداف وغايات معنوية هي المقصد الأساسي والغاية التي تسعى إليها، ولتحقيق هذه الغايات غير المرئية وسائل تنفيذ تنبىء عن التزام الجماعة بتلك الأهداف والسعي الحثيث وصولاً إلى تلك الغايات، وبذلك ينبغي للباحث النظر إلى الغاية والهدف أما الوسيلة فهي شيء رمزي يشير إلى ما هو أسمى ولا قيمة لها في حد ذاتها.

وسيبقى الاعتراض العقلي المحض على الوسيلة مستمراً لو تركنا للسؤال مداه.

لماذا كانت هذه الشعيرة على هذه الصورة ولم تكن بشكل آخر؟.

ولو عدلنا إلى الشكل الآخر لاستمر السؤال إلى غير نهاية.

وبذلك يبقى خياران:

إما أن نترك الوسائل وبذلك ينتهي التذكير بالغايات، وإما أن نقبل الأمر الواقع بالنسبة للوسيلة ونجعل الغاية هي المقصد الأسمى الذي نتجه إليه بعقولنا وعواطفنا وهو سبيل المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ولا يعبدون إلا الله.

بهذه النظرة الغائية ينظر علم الاجتماع الديني للمعتقدات على أساس ما تحققه من فائدة لصالح المجتمعات البشرية وما لها من سلطان على تهذيب الظواهر الاجتماعية والحد من انحرافها بغض النظر عن الوسائل التعبيرية على وجود المعتقد.

وقد تكون الوسيلة التعبيرية مرتبطة بمناسبة خاصة كما حصل عندما طاف المسلمون للمرة الأولى حول الكعبة وقد تهامس المشركون بأن المسلمين ضعاف الأجسام منهوكو القوى فأمر الرسول أتباعه بالاضطباع (تعرية الكتف الأيمن) والرمل (الإسراع في الأشواط الثلاثة الأولى) إظهاراً لقوة المسلمين البدنية.

وقد تكون الحكمة غير ظاهرة كما في تقبيل الحجر الأسود وما شابهه من مناسك.

تلك مقدمة أحسب أنها لازمة للنظر في هذه الشعيرة الإسلامية التي لم تكن الغاية منها واضحة لعامة الناس.

شكل الحجر ومكانه:

اهتم المؤرخون والرحالة بوصف هذا الحجر وتحديد حجمه بحيث أصبح معروفاً معرفة لا لبس فيها، يقول ابن بطوطة في رحلته: إن «ارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والصغير يتطاول إليه، وهو ملصق في الركن الذي يلي جهة الشرق، وسعته ثلثا شبر، وطوله

شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن، وفيه أربع قطع ملصقة، وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة»[1].

وهذه الكسور التي أشار إليها كانت نتيجة ضرب الكعبة بالمنجنيق على يد الحصين بن نمير السكوني حينما اعتصم بها عبد الله بن الزبير الذي خرج عن الدولة أيام معاوية بن أبي سفيان والحريق الذي شب في الكعبة في تلك الفتنة، وقد ربط ابن الزبير القطع بالفضة، ولكنها ضعفت وتزعزع الحجر فأعاد الرشيد شده بالفضة من جديد[2].

وقيل إن القطعة الصغيرة قد بقيت عند بني شيبة حينما نقله القرامطة وأعيدت حينما أعادوه[3].

وهذا الحجر أسود لامع كأصفى ما يكون الرخام وبه نقطة بيضاء ناصعة البياض.

وقد حاول الناس تعليل سواده بأسباب طارئة لا ترجع إلى طبيعة تكوينه أحدها سبب مادي فقالوا أنه «كان أبيض ناصعاً وإنما أسود من كثرة لمس الناس له»[4].

وهذا تعليل خاطىء جداً لأن استناد الناس بأكفهم على جانب الحائط والناس يقبلونه بأفواههم، في الغالب ولم يسود الحائط المعرض إلى لمس الكف المعرضة للتلوث.

بالإضافة إلى أن هذا التأثير سيجعل سطح الحجر دهنياً مغبراً ولا يبقى على النقطة البيضاء الناصعة.

---

(1) مهذب رحلة ابن بطوطة ص 107 ط الأميرية ببولاق سنة 1939م.

(2) انظر أعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي ص 171 ط وزارة الأوقاف بالإمارات العربية المتحدة وأخبار مكة/ أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي 1/ 203/ 208/ 345 ورحلة ابن جبير 76 ط / دار التحرير.

(3) انظر الاستبصار في عجائب الأمصار/ لمؤرخ مراكشي تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ص 17 ط/ دار النشر المغربية 1985م.

(4) دائرة معارف القرن العشرين ج 3 ص 355.

التعليل الآخر يستند إلى سبب معنوي، فقد أخرج الزركشي حديثاً طويلاً في سنده وهب بن منبه أن الله غيّره إلى السواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة الخ[5].

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد عن هذا الحديث رواه الطبراني في الكبير وفيه (أي السند) من لم أعرفه ولا له ذكر[6].

وأضيف بأن وهب بن منبه مختلف في روايته فقد وثّقه الجمهور وضعّفه بعضهم لأنه ممن تكلموا في القدر وألف فيه[7].

وهناك من علّل ذلك بأنه أسود من ذنوب المذنبين واعترض عليه بعكس ذلك، لِمَ لم يبيضّ من حسنات الأبرار؟[8].

ويجادل ابن قتيبة في هذا الاعتراض بأن البياض ينصبغ ولا يصبغ والسواد يصبغ ولا ينصبغ[9] ومهما يكن من شيء فإن البحث في هذا الشأن لا فائدة من ورائه وأقرب إلى العقل أن هذا لون طبيعي من ألوان الحجارة وهو في حد ذاته من آيات الله في الكون ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[10].

متى وضع الحجر في بناء الكعبة؟

من المتفق عليه أن هذا الحجر قديم قدم الكعبة ذاتها وأنه القطعة المؤكد بقاؤها من الحجارة التي بنى بها إبراهيم الخليل عليه السلام الكعبة.

وكان هذا الحجر معروفاً بأنه نقطة البداية للطواف حتى قبل الإسلام.

يقول الطبري عن بناء البيت: «فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو

---

(5) انظر أعلام الساجد ص 202.

(6) مجمع الزوائد ج 3 ص 243 ط/ مؤسسة المعارف/ بيروت.

(7) انظر قانون الموضوعات لابن الهندي ص/ 302.

(8) انظر فتح الباري ج 3 ص 462.

(9) تأويل مختلف الحديث ص 290 ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(10) 27 سورة فاطر.

وإسماعيل حتى انتهيا إلى موضع الركن قال إبراهيم يا بني ابغ لي حجراً أجعله علماً للناس، فجاءه بحجر فلم يرضه وقال: ابغني غير هذا، فذهب إسماعيل ليلتمس له حجراً فوجد الحجر في مكانه فقال له يا أبت من جاءك بهذا الحجر فقال: من لم يكلني إليك يا بني»[11].

وقبل البعثة المحمدية بخمس سنوات تعرضت الكعبة لسرقة بعض كنوزها لأنها لم تكن مسقوفة وكان بناؤها عبارة عن حجارة متراصة تزيد عن القامة قليلاً فاتفقت قريش على إعادة بنائها، وحينما وصل البناء إلى موضع الحجر ثار الخلاف حول من يقوم بوضعه، وكادت تنشب حرب ضروس لا تبقي ولا تذر لولا أنهم اتفقوا على تحكيم أول داخل عليهم فكان محمد الأمين عليه الصلاة والسلام وقد فض النزاع بوضع الحجر في ثوبه وأخذت كل قبيلة بطرف منه وقد وضعه الرسول بنفسه وبنى عليه[12].

أما عندما بناها ابن الزبير بعد ضربها بالمنجنيق كما سبق فقد وضع الحجر في مكانه ابنه حمزة، وأبوه يصلي بالناس في المسجد خوفاً من اختلاف الناس على ذلك فأقره أبوه على ذلك وقطع النزاع[13].

ذلك هو القدر المعقول من الروايات.

وهناك حديث لم يخرجه البخاري في صحيحه وأخرجه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً وهو أن الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسوّدته خطايا بني آدم.

وقد اعترض ابن حجر على هذا بأن من رواته عطاء بن السائب وهو صدوق ولكنه اختلط عقله في آخر أيامه وجرير الذي سمع منه كان التقاؤه به

---

(11) تاريخ الطبري ج 1 ص 130 ط/ مؤسسة عز الدين/ بيروت.

(12) انظر سيرة ابن هشام القسم الأول ص 192 تحقيق السقا وآخرين ط 2، مصطفى الحلبي سنة 1955م.

(13) نقل ذلك محققو سيرة ابن هشام عن السهيلي في الروض الأنف هامش ص 197 القسم الأول، وقال الأزرقي: الذي وضعه عباد بن عبد الله بن الزبير وأعانه عليه جبير بن شيبة، انظر أخبار مكة 1/ 208.

بعد اختلاطه، ومن هنا جاء الشك وإن كانت له طريق أخرى في صحيح ابن خزيمة[14].

وروي حديث طويل آخر جاء فيه: لما هبط آدم من الجنة أنزل الله عليه الحجر الأسود يتلألأ كأنه ياقوتة بيضاء فأخذه آدم فضمه إليه استئناساً به.

وقد علق الزركشي على سنده بأن محمداً بن زياد (راوي الحديث) كذاب خبيث كذبه يحيى بن معين وأبو زرعة والدارقطني والفلاس[15].

وفيه حديث آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً أن الحجر والمقام (مقام إبراهيم) ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما، ولولا ذلك لأضاءا ما بين المشرق والمغرب.

أخرجه أحمد والترمذي وفي إسناده رجاء أبو يحيى وهو ضعيف.

وقال الترمذي حديث غريب.

ويروى عن عبد الله بن عمر موقوفاً، وقال ابن أبي حاتم عن أبيه وقفه أشبه والذي رفعه ليس بالقوي[16].

وروي عن ابن عباس إنما غيّره الله بالسواد لئلا ينظر الناس إلى زينة الجنة[17].

محاولات لفهم السر:

لقد وجهت طعون وحلول لهذه الشعيرة الرمزية في القديم والحديث نظراً لعدم وضوح الحكمة منها وبخاصة عند ذي النظرة العجلى أو العقل المحتكم إلى المقاييس المنطقية المادية.

والكتاب الغربيون ـ كموقفهم دائماً من شعائر الإسلام ـ لم يتركوا هذه

---

(14) انظر فتح الباري ج 3 ص 462 ط/ دار الفكر/ بيروت.

(15) إعلام الساجد ص 44.

(16) فتح الباري ج 3 ص 462، وعلل الحديث لابن أبي حاتم الرازي 1/ 275.

(17) نفس المصدر ط/ دار المعرفة بيروت.

الشعيرة دون تفسير وفق مناهجهم، وقد نقل الدكتور محمد غلاب الأستاذ بجامعة الأزهر عن العالم الإنجليزي دينيس سورا أستاذ تاريخ الأديان بجامعة لندن قوله «لقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التي تقطن الأحجار إلى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة، ولقد محي هذا كله، ولم يبق منه سوى الحجر الأسود، فقد ظل موطن القداسة الجوهرية إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم، ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق كما يمكن أن يكون ذلك ناشئاً عن احترام شخصي».

والدكتور محمد غلاب يلتمس عذراً لباحث أجنبي أنصف الإسلام وأخطأ في هذه النقطة الغامضة «إذ أن عدداً ضخماً من الاعتراضات قد وجه لهذه الشعيرة منذ وفاة الرسول إلى اليوم، فأبو العلاء المعري وصفها بأنها بقية أوثان وأنصاب، وغيره نعتها بأنها أحد تقاليد قريش الأثرية المتفق عليها من الجميع اتفاقاً منحها من المتانة والقوة قدراً لم يجرؤ معه النبي على محوها.

وزعم فريق ثالث أن النبي احتفظ بهذا الحجر وأمر بتعظيمه تخليداً لذكرى إبراهيم، وادعى فريق رابع أنه تصوير لهبوط آدم من الجنة، وقد أمر الناس منذ آدم أو منذ إبراهيم أن يمسوه لتنتقل إليه خطاياهم وآثامهم، وهذه الأثام هي التي صيرته أسود، ولما كان واسطة في تطهرنا من آثامنا واحتمالها عنا فقد أمر النبي بتقبيله إشارة إلى عرفان الجميل».

ويعقب على هذه الآراء جميعاً بقوله:

ونحن لا نستطيع أن نؤمن برأي من هذه الآراء لأننا لا نجد بينها ما يرضي الشك ولا ما يقنع اليقين وينتهي إلى ما ملخصه أنه شعيرة ترمز إلى سر إلٰهي علم الرسول ﷺ أنه يدق على عقول الكافة من المسلمين في ذلك الحين فاقتضت الحكمة ألا يكشف لهم عنه كما اقتضت الحكمة ألا تكشف لهم أسرار الروح وأجابهم القرآن بأنها من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»[18].

(18) انظر/ هذا هو الإسلام ص 101 وما بعدها ط/ كتاب الشعب 1959م.

وتعرض محمد عبده وتلميذه رشيد رضا لهذه الروايات التي لم تسلم من النقد وفقاً لمصطلحات علماء الحديث كما سبق وقالا: «وكل هذه الروايات خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوّهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه»[19].

ويقول محمد عبده عن الحجر الأسود «إنه حجر كسائر الحجارة وإنما استلامه أمر تعبدي في معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه إليها توجهاً إلى الله الذي لا يحده مكان ولا تحصره جهة من الجهات[20].

وتعرض الدكتور محمد الطيب النجار الأستاذ بجامعة الأزهر في كتابه دراسات في السيرة النبوية لهذه الأحاديث بالنقد بمنهج آخر، وهو الاحتكام للعقل ومقابلة ما بينها من تناقض وتضارب.

فالرواية عن ابن عباس مرتين إحداهما تقول إنه أسود من الخطايا والأخرى تقول لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة.

ويتساءل: ما الفائدة من إنزاله من الجنة إذا كان عرضة للتغير وخفاء خاصيته؟.

أليس أدل على قيمته بقاؤه على حالته الأولى الخ[21].

وينتهي إلى رفضها كما رفضها رشيد رضا والمحدثون السابقون وإن اختلفت المناهج.

ولعلّ هذه الرمزية التي أشارت إليها الدراسات الحديثة هي ما يشير إليه ما يروى أن الرسول قال: «**الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح بها عباده**» قال الخطابي معنى ذلك أن من صافحه كان له عند الله عهد، وجرت العادة أن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريد موالاته والاختصاص به فخاطبهم بما يعهدونه.

---

(19) تفسير المنار ج 1 ص 466 ط/ دار المعرفة.

(20) نفس المصدر السابق ص 467.

(21) ص 92 وما بعدها، ط/ دار الاتحاد العربي للطباعة/ مصر.

وقال المحب الطبري «معناه أن كل ملك إذا قدم عليه الوافد قبل يمينه، فلما كان الحاج أول ما يقدم يسن له تقبيله نزل منزلة يمين الملك، ولله المثل الأعلى»[22].

فالحديث جرى مجرى التمثيل لتقريب الصورة، واستحضار عظمة الله الذي يقف الحاج ببيته معلناً توبته مستجيباً لأمره ونهيه فهو وسيلة توصل الإنسان إلى غاية هي الشعور بأنه بين يدي الله جل جلاله.

وهذا على افتراض صحة الحديث، أما لو رجعنا لابن الجوزي فإننا نجده يقول عن رواية جابر بن عبد الله لهذا الحديث: «هذا حديث لا يصح وإسحاق بن بشر قد كذبه أبو بكر بن أبي شَيبة وغيره، وقال الدارقطني هو في عداد من يضع الحديث، وأبو معشر ضعيف»[23].

موقف الصحابة من السنة العملية:

لقد كان الصحابة والمسلمون الصادقون ملتزمين بالسنة العملية لرسول الله ﷺ يقبلونها بدون تردد ولا نقاش وإن جهلوا حكمتها، وقد أخرج ابن أبي شيبة والدارقطني في العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبي ﷺ وقف عند الحجر فقال: **«إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ثم قبله»**[24].

وروي مثل ذلك عن أبي بكر.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال للركن: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله استلمك ما استلمتك، ثم قال: ما لنا وللرمل؟.

إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله.

ثم قال: شيء صنعه رسول الله فلا نحب أن نتركه[25].

---

(22) فتح الباري ج 3 ص 463 وانظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة 215.

(23) العلل المتناهية 2/ 575.

(24) تفسير المنار ج 1 ص 467.

(25) فتح الباري ج 3 ص 471.

وقال ابن عمر: ما تركت استلام هذين الركنين ـ الحجر الأسود والركن اليماني في شدة ولا رخاء منذ رأيت النبي يستلمهما[26].

ماذا يفعل من لم يصل إليه؟

قد يشتد الزحام حول الكعبة فيصعب على الإنسان الاقتراب منه والناس في هذه الحالة قسمان:

قسم يرى الحرص على تطبيق السنة أفضل ولو تعرض إلى الضيق والمضايقة ومن هؤلاء عبد الله بن عمر الذي كان يزاحم حتى يسيل الدم منه.

وفريق آخر يرى أنه لا ضرر ولا ضرار وأن الدين يسر ويستدل بما رواه عكرمة عن ابن عباس أن النبي طاف بالبيت على بعير كلما أتى الركن أشار إليه وكبر، وفي حديث آخر أنه استلمه بالمحجن.

وهناك اختلاف بين الفقهاء هلى يقبل يده أو المحجن ـ العصا ـ أولاً؟.

ففريق يرى أن يقبلهما وفريق يرى وضع يده على فمه دون تقبيل[27].

فالاستلام أو التقبيل سنة عند القدرة عليهما وقد نقل ابن حزم الإجماع على ذلك[28].

وحينما قلعه القرامطة من مكانه نص الفقهاء على ضرورة إدخال اليد في مكانه وتقبيلها[29].

وقد استحب جماعة من السلف استلام الحجر الأسود عند الخروج من البيت سواء أكان عقب طواف أم لا.

روى ذلك عن أبي عمرو سعيد بن جبير وطاوس وإبراهيم النخعي وغيرهم، وحكى ابن أبي زيد عن مالك في الموازية أنه لا بأس به[30].

---

(26) نفس المصدر السابق.

(27) نفس المصدر السابق ص 473.

(28) مراتب الإجماع ص/ ، ط/.

(29) مستفاد الرحلة والاغتراب 271.

(30) إعلام الساجد ص 183.

في مجرى التاريخ:

لقد تعرض الحجر الأسود للكسر حين ضربت الكعبة بالمنجنيق وانكسر كما سبق.

وقلع من مكانه وركب في مرات مؤكدة تاريخياً، حين بنتْها قريش واحتكمت إلى النبي قبل البعثة، وحين بناها ابن الزبير، وحين أعاد بناءها الأمويون، وحين أغار القرامطة على مكة فقتلوا الحجيج ونهبوها قلعوا باب الكعبة والحجر الأسود ونقلوه إلى جامع الكوفة ثم إلى هجر وبقي عندهم 22 سنة إلا شهر وقيل إلا أربعة أيام، ثم ردوه في 5 ذي الحجة سنة 339هـ مقابل ثلاثين ألف دينار دفعها الخليفة العباسي كما قيل[31].

وفي سنة 413هـ وفي اليوم الثالث من أيام النحر والناس في صلاة الظهر تقدم رجل قيل إنه قدم مع قافلة من حجيج مصر وفي يده دبوس من حديد ضرب به الحجر الأسود فكسره وانفصلت منه ثلاث شظيات ثم انصرف في اتجاه الصفا فلحق به الناس وقتلوه وقتل من أجله ما يزيد على خمسمائة رجل من حجاج أهل المغرب في شعاب مكة[32].

ولعل هذا يؤكد أنه لا مزية له وإلا لحفظه الله وحماه حماية تعجز العابثين.

خلاصة ما يبقى مما قيل:

1 ـ إن الحجر الأسود أقدم قطعة مؤكد بقاؤها من بناء إبراهيم الخليل للكعبة.

2 ـ إنه حجر كسائر أحجار الدنيا ولا صحة لما قيل عن إنزاله من الجنة.

3 ـ إنه علامة لبداية الطواف، ولم يرد حديث صحيح في وصفه أو فضله عن الرسول وأن كل ما ثبت فيه عنه باتفاق المسلمين أنه قبله دون أن يعرف

---

(31) انظر معجم البلدان/ ياقوت الحموي 2/ 223 ط/ صادر 1979م.

(32) انظر المسالك والممالك/ أبو عبيد البكري تحقيق أدريان فان ليوفن واندريه فيري 1/ 405 ط/ الدار العربية للكتاب 92.

أحد الحكمة الحقيقية منه مباشرة.

4 ـ انعقد إجماع المسلمين على جواز تقبيله واستحبوا ذلك استحباباً لا يؤثر على صحة الحج أو الطواف إن ترك مع القدرة أو عدمها ويكفي أن يشير إليه المسلم ويكبر الله.

تلك هي خلاصة القول والله أعلم.